مقتطف

مدن غير مرئية (13)

طيور رخٍّ على رقعة شطرنج

تنشر «العربي الجديد»، على حلقات أسبوعية، ترجمة الشاعر والروائي والناقد الفلسطيني محمد الأسعد كتاب «مدن غير مرئية» لإيتالو كالفينو. يعدّ العمل من آخر ما ترجمه الأسعد قبل رحيله المفاجئ في أيلول/ سبتمبر من العام الماضي

إيتالو كالفينو

بولو: ربما لا تطلّ مصاطب هذه الحديقة إلّا على بحيرة عقلنا.
قبلاي: ومهما كان البُعد الذي قد تأخذنا إليه مشاريعنا المقلقة كمحاربين وتجّار، فكلانا يُخفي في دواخل نفسه هذا الظلّ الصامت، هذا الحديث ذا الفواصل، هذا المساء الذي هو دائماً المساء نفسه.
بولو: ما لم تكن الفرضيّة المعاكسة صحيحة: أنّ أولئك الذين يُجاهدون في معسكرات وموانئ غيرُ موجودين إلّا لأننا نحن الإثنين نفكّر بهم، هنا، محبوسين بين سياجات شجيرات الخيزران هذه، بلا حركة منذ أن بدأ الزمان.
قبلاي: ما لم يكن هناك وجودٌ للكدح، للصرخات، للآلام، للنتن؛ ولا وجود إلا لأجمةِ الأضاليا هذه.
بولو: ما لم يكن الحمّالون، قاطعو الحجارة، جامعو القمامة، الطهاة وهم ينظّفون حواصل الدجاج، الغسّالات المنحنيات على الصخور، الأمهات اللواتي يحرّكن الرز وهن يعتنين بأطفالهن، موجودين إلّا لأننا نفكر بهم.
قبلاي: إذا أردت الحقيقة، أنا لا أفكّر بهم أبداً.
بولو: إذاً لا وجود لهم.
قبلاي: هذا الحدس لا يبدو بالنسبة إليّ ملائماً لأغراضنا؛ من دونهم ما كان لنا أن نبقى هنا أبداً نتأرجح، متشرنقين في أرجوحتَيْ نومنا.
بولو: إذاً، يجب نبذُ الفرضيّة. وهكذا تصبح الفرضية الأخرى صحيحة: هم موجودون ونحن غير موجودين.
قبلاي: لقد برهنّا على أنّنا لو كنّا هنا، فلن يكون لنا وجود.
بولو: وها نحن هنا في الحقيقة.

■■■

تمتدّ من تحت قدمَيْ عرش الخان الأكبر أرضيّةٌ مرصوفة بقرميدٍ إيطاليّ مزجّج. على هذه الأرضية نثرَ المُخبر الصامت، ماركو بولو، عيّنات من سِلَع معيّنة عاد بها من رحلاته الى أقاصي الإمبراطورية: خوذة، صدفة بحرية، جوزة هند، مروحة يد. حاول السفير، بترتيب الأشياء وفق نظام معيّن على بلاطات القرميد السوداء والبيضاء، وتغيير أماكنها أحياناً بحركات محسوبة، أن يصوّر بصرياً لعينَيْ العاهل تقلّبات أسفاره، أوضاع الإمبراطورية، امتيازات المناصب الريفية النائية.
كان قبلاي لاعب شطرنج حادّ الذكاء؛ فلاحظ، وهو يتابع حركات ماركو، أنّ قطعاً معيّنة تُلمّح ضمنياً إلى المناطق المجاورة لقطع أخرى أو تستبعدها، وأنه كان يتمّ تغيير أماكنها على امتداد خطوط معينة. فكان يستطيع، متجاهلاً تنوّع أشكال الأشياء، فَهْم نظام ترتيب إحداها بالعلاقة مع نُظُم ترتيب الأخريات على أرضية القرميد المزجّج. فكّر: «لو أن كل مدينة تشبه لعبة من ألعاب الشطرنج، سأتملّك إمبراطوريتي أخيراً في اليوم الذي أتعلّم فيه قواعد اللعب، حتى لو لم أنجح أبداً في معرفة كل ما تحتويه من مدن».
عملياً، كان من العبث بالنسبة إلى أحاديث ماركو أن توظّف كلّ هذه الطُّرَف: إن رقعة شطرنج ستكون وافية بالغرض بقِطَعها المحدّدة النوعية. كلّ قطعة من جانبها يمكنها إعطاء معنىً مخصوص: قطعة فارس يمكن أن تقابل خيّالاً حقيقياً أو موكبَ مركبات، جيشاً في مسيره، أو نصْباً تذكارياً لمأثرة فُروسية؛ قطعة ملِكة يمكن أن تكون سيّدة تنظر من شرفتها إلى الأسفل، نافورة، كنيسة بقُبّةٍ مدببة، شجرة سفرجل.
لدى عودته من مهمّته الأخيرة، وجد ماركو بولو الخانَ في انتظاره، جالساً وأمامه رقعة شطرنج. وبإيماءة دعا الفينيسيَّ إلى الجلوس قبالته ووصف المدن التي زارها، غير مستعين إلّا ببيادق الشطرنج. لم يفقد ماركو شجاعته. كانت بيادق الخان الأكبر، قِطَعاً ضخمةً من عاج مصقول: بتنظيمه على الرقعة طيور الرخّ المحلّقة والفرسان المتجهّمين، بتجميعه أسراباً من البيادق الثانوية، برسْمه جادّاتٍ مستقيمة أو منحرفة مثل حركة ملكة تتقدّم، أعاد ماركو خلْق منظورات وفضاءات المدن السوداء والبيضاء في الليالي المقمِرة.

> الذين يطلّون من المرتفعات يخمّنون ما يحدث في المدينة

> إيرين مدينةٌ تقع على مبعِدة، وتتغيّر إذا اقتربتَ منها

متأمّلاً هذه المشاهد الرئيسة، فكّر قبلاي مليّاً بالنظام اللامرئي الذي يعزّز بقاء المدن، بالقواعد التي تقضي كيف تقوم، تتّخذ شكلاً وتزدهر، مكيّفةً نفسها مع الفصول، ومن ثم كيف تُصبح مُحزنة وتهوي متحوّلةً إلى خرائب. اعتقدَ أحياناً أنه أوشك على اكتشاف نظام متناغم، متماسك يباطن التشويهات والتعارضات اللامتناهية. إلّا أن أي نموذج لا يستطيع صموداً، في المقارنة بلعبة شطرنج. ربما، بدل أن يُجهد المرء دماغه في استلهام رؤىً مساعدة هزيلة من قطع شطرنج مآلُها النسيان على أية حال، سيكون كافياً أن يلعب لعبةً وفق القواعد، وأن يعتبر كلّ حالة من حالات الرقعة المتعاقبة شكلاً من الأشكال التي لا تُحصى، والتي يجمعها نظام الأشكال ويدمّرها.
الآن لم يعد على قبلاي خان إرسال ماركو بولو في حملات بعيدة؛ أبقاه عنده لاعباً ألعاب شطرنج لا نهاية لها. معرفة الإمبراطورية كانت مخفية في النمط الذي ترسمه انتقالات الفارس ذات الزوايا، والمسارات المائلة التي تفتحها غارات بيادق الشطرنج، وخطوة الملك المتثاقلة الحذرة والبيدق المتواضع، وحركات الصّعود والهبوط العنيدة لكلّ لعبة.
حاول الخان الأكبر التركيز على اللعبة، ولكنْ كان غرض اللعبة هو ما أفلت منه الآن. كلّ لعبة إمّا أن تنتهي بربح أو خسارة، ولكنْ ربْحُ ماذا؟ وخسارةُ ماذا؟ أين كانت الرهانات الحقيقية؟ حين يُهزم الشاه، وبعد أن تزيحه جانباً يد الفائز، يظلّ تحت قدم الملك مربّعٌ أسود أو أبيض.
هنا وصل قبلاي ـ بفصله لفتوحاته عن مجسّداتها من أجل اختزالها إلى الجوهريّ ـ إلى العملية المتطرّفة: إلى الفتح النهائي، ذلك الذي لم تكن كنوز الإمبراطورية المتعدّدةِ الأشكالِ بالنسبة إليه إلّا أغلفة خادعة. لقد اختُزِل إلى مربّعٍ من خشب منبسط: إلى عدم...

(ترجمة: محمد الأسعد)

النص الكامل
على الموقع الألكتروني

فيليمير إيليزيفيتش (كرواتيا)، من سلسلة «بين التوقّف والبدء من جديد»

هواءٌ من تراب

ما يجعل آرجيا مختلفةً عن مدن أخرى، هو أنّ لديها تراباً بدل الهواء. الشوارع ممتلئة بالتراب امتلاءً تامّاً، والغُرف تكتظّ بالطين حتّى السقوف. على كلّ درج وضُع درجٌ نقيض له، وفوق سطوح البيوت طبقاتٌ معلّقة من تضاريس صخرية تُشبه سماوات غائمة. لا نعلم إن كان السكّان يستطيعون التنقّل في أرجاء المدينة، موسّعين الأنفاق حيث تتلوّى الجذور: الرطوبة تُتْلف أجساد الناس، وقُواهم هزيلة. من الأفضل ألّا يظلّوا ساكنين.

معرض

منذ الكاهنة إلى ضحايا العشرية السوداء

منسيّات الجزائر

من خلال بورتريهات لهنّ مرفقة بسَير موجزةٍ عنهن، يُقدّم المعرض إضاءةً على نساء من أزمة مختلفة نسيتهن الذاكرة الجزائرية بدرجات متفاوتة

الجزائر ـ **مليكة ياسين**

رغم الأدوار البارزة التي أدّتها كثيراتٌ منهن، فإنَّ اهتمام المؤرّخين بالمرأة الجزائرية يبدو أقلّ مِن ذلك الذي يحظى به الرجل، وهو أمرٌ قد يُفسَّر، من وجهة نظر نسوية، بهيمنة النزعة الذكورية على كتابة التاريخ، وما يدعم هذا الرأي هو أنَّ معظم مَن يكتب التاريخ هُم رجال. لكن قد يكون لطبيعةِ تلك الأدوار علاقةٌ بذلك أيضاً؛ إذ قليلاً ما وصلت المرأة إلى مراكز قيادية.
يأتي معرض «المنسيات في التاريخ»، الذي افتُتح في الثامن عشر من كانون الأوّل/ ديسمبر الماضي في «حصن 23» بالجزائر العاصمة وتواصل حتى أمس السبت، بتنظيم من مجلّة «باب الزمان» الثقافية، كمُحاولةٍ للإضاءة على نساء من أزمنة مختلفة «منسيات» في الذاكرة الجزائرية؛ من خلال عرضِ بورتريهاتٍ لهنّ مرفقة بسَير موجزة عنهن.
لكنَّ هذا النسيانُ يتّخذ درجات متفاوتة؛ فبعض نساء المعرض التوثيقي معروفاتٌ جدّاً وخصهُنّ المؤرّخون بكتابات كثيرة، كما هو الأمر بالنسبة إلى الملكة الأمازيغية ديهيا المعروفة باسم الكاهنة، والتي عاشت في القرن الثامن الميلادي، بينما لا تُذكَر بعضهنّ إلّا في سياق الحديث عن حادثة معيّنة، وفي الغالب دون توقُّف مطوَّل عند أسمائهن»، كما هو الأمر بالنسبة إلى مجموعةٍ من المعلّمات اللواتي اغتالهنّ الإرهاب خلال «العشرية السوداء».
ليست «الكاهنة» مجهولةً أو منسية بالمقارنة مع أمينة ديش، وعزيزة تونسي، وخيرة بوداود، ورشيدة بوترعة، وزهرة مهدان، وفطيمة بوهند، ومحمدية فليو، ونعيمة لوهاب، وحفيظة لنفاد، وخيرة شيريد، وسحنونية بواعلي حنفي، وهنّ إحدى عشرة معلّمةً اغتالتهنّ مجموعةٌ إرهابية في أيلول/ سبتمبر 1997 بينما كنّ عائداتٍ إلى منازلهن على متن حافلة في إحدى قرى ولاية سيدي بلعبّاس غرب الجزائر. كان ثمّةَ معلّمٌ واحدُ معهُنّ اسمُه صابر الحبيب، نقرأ اسمه إلى جانب أسمائهنّ.
تمتدُّ مسافة المعرض الزمانية، إذن، من العصور القديمة وصولاً إلى الزمن الحديث، وبينهما محطّاتٌ برزت فيها أسماءُ نساء مثل لالّة فاطمة نسومر (1830 – 1863)؛ إحدى أبرز قائدات المقاوَمات الشعبية ضدّ الاستعمار الفرنسي خلال القرن التاسع عشر، ونفيسة حمّود (1924 - 2002)؛ المناضلة في الثورة التحريرية، ونبيلة جحنين؛ الناشطة النسوية اليسارية التي اغتالها الإرهاب في تيزي وزّو عام 1995، ورشيدة حمادي؛ الصحافية التي اغتالها الإرهاب، رفقة شقيقتها حورية، في الجزائر العاصمة في العام نفسه.
في المعرض أيضاً أوروبيات مناهضات للاستعمار؛ مثل ريموند بيشار (1925 - 1957)، وإيفلين سفير لافالات (1927 - 2014) التي ناضلت ضدّ الاستعمار وعاشت في الجزائر إلى غاية رحيلها، وإميلي بوسكان (1901 - 1953)؛ المناضلة الفرنسية ضدّ الاستعمار الفرنسي، والتي ارتبط اسمُها بزوجها مصالي الحاج (1898 – 1974) المعروفِ باسم «أبو الحركة الوطنية الجزائرية».

> يُضيء المعرض أيضاً على أوروبيات مناهضات للاستعمار الفرنسي

النص الكامل
على الموقع الألكتروني

من المعرض

قراءة

«نساء» محمّد أبي سمرا

صناعة اللاأثر

في «نساء بلا أثر» لا يروي محمّد أبي سمرا الواقع اللبناني بقدر ما يقدّم رؤية مضادّة لهذا الواقع. السرد، هنا، نوعٌ من الكتابة الإنكارية

عباس بيضون

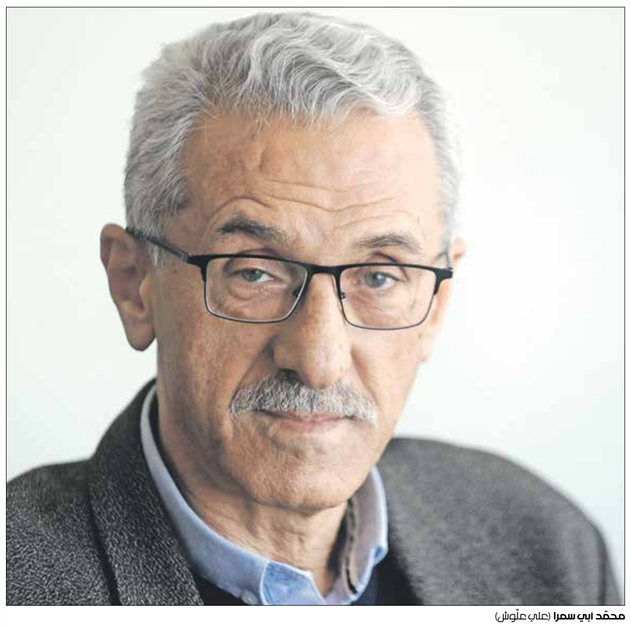

«بلا وداع بلا جذور بلا أثر»، عند هذه العبارة تنتهي تقريباً رواية محمّد أبي سمرا «نساء بلا أثر» الصادرة عن دار «رياض الريس» في بيروت. إذا رجعنا إلى عنوان الرواية، يتراءى لنا أنه يكاد يكون عِبرة الرواية أو خلاصتها. إنه إذ يخطر لماريان، بطلة الرواية وراويتها ونموذجها الأساسي، فإنه لا يختصر حياتها وحدها بقدر ما يختصر حيوات النسوة اللواتي جئن من بلدان عدّة، ليجتمعن ثانيةً في بيروت، ليصبح بذلك خاتمةً، لا للرواية وحدها، بل أيضاً لحياة البلد الذي جئن منه ومن سواه، وهنّ اللواتي تنقّلن بينه وبين خارجه.
لكأنّ هذا اللاأثر يطاول، لا سير النسوة المجتمعات فحسب، بل تاريخ وسيرة البلد الذي دارت الرواية حوله: لبنان، وإذا شئنا أن نعيّن أكثر قلنا: بيروت. لا يطابق تاريخ النسوة تاريخ البلد إلّا من بعيد، فهنّ ينتمين ولا ينتمين إليه بالدرجة نفسها، كذلك هو حال ماريان، لكنّ هذا البُعد فِقَريّ وأساسيّ في الرواية. إذ إن أرمنيّة ماريان، شأنها شأن سوريّةٍ وجزائرية وعُمانية ولبنانية الأخريات، تجعل لهنّ موقعاً أساسياً في النظر إلى لبنان. إذا تذكّرنا قولاً يقرّر أن الشاعر أجنبيٌّ لغته، فإن هذا قد ينطبق على الروائيّ إذا كانَه محمّد ابي سمرا.
«نساء بلا أثر» هي تقريباً رواية نساء. بطلاتها ينظرن من أجنبتهنّ إلى لبنان، لكنّ ماريان وبقيّة النسوة لسن أجنبيات عن لبنان فحسب، فهنّ أجنبيات أيضاً عن مصادرهنّ ومساقط عرقهنّ وتاريخهنّ. الأرمنية أجنبية عن لبنان، لكنّ هذه الأجنبة هي مقدّمة لأجنبتها عن أرمينيا وعن الأرمن، وستكون هذه الأجنبة حال السورية والجزائرية والعُمانية واللبنانية. بل إن الأجنَبَة ليست حال هؤلاء بالنظر إلى بلدانهنّ الأولى ومساقطهنّ؛ إنها أيضاً حالهنّ تجاه بلدانهنّ الثانية، بل وانتماءاتهنّ كلّها. إننا لا نزال نجد أن هذه الأجنَبَة جوهر سلوك ماريان، مثلاً، تجاه «الحزب الشيوعي اللبناني» الذي اختارته وانضوت فيه، لكنّنا لا نزال نشعر بأنها في الأساس داخله وخارجه. لا نزال نشعر بأنها أجنبية في ذلك، شأنها شأن بقية المواقع. إنها شيوعية مضادّة، إذا جاز التعبير، من دون أن يكون هذا موقفاً صريحاً ومعلناً. إنّها أجنبية تجاه «الحزب الشيوعي» شأنها تجاه لبنان والأرمن ولوس أنجلس وباريس.
مع ذلك فإن ماريان هي القمينة برواية لبنان الحديث، بل نحن نشعر بأن أجنَبَتها تجعلها أكثر أهليّةً لهذه الرواية، بل إنها تجعل الروائي نفسَه أجنبيَّ بلده، وهو بهذه الصفة يختار موقعه كروائيّ، بل هو روائي على هذا الأساس. لا تفعل الحياة، بل تفعل الرواية نفسها، سوى تغريب متّصل للرواية والراوية. يكاد هذا أن يكون شرطاً لهما. هذا الانفصال الذي يكاد يكون موضوع الرواية، يكاد يكون سياقها الموصول، بل ويكاد يكون عصَبها وفحواها. ماريان، في ما ترويه، لا تفعل سوى أن تنفصل شيئاً فشيئاً، وفي كلّ جملة وكلّ ملاحظة.
هذا الانفصال هو موقعٌ أكثر منه موقفاً. ليس صراعاً ولا نزاعاً ولا خروجاً ولا انتفاضاً أو تمرّداً. إنه موجود في الأساس، والرواية لا تفعل سوى أن تستعيده وتبسّطه، تقريباً في كلّ خاطرة وكلّ ملاحظة. الرواية هي هكذا سياقُه وتواصُله وتتابُعه. إنه ليس وليد محاكمة مباشرة، أو موقف نقديّ من الوضع والواقع اللبنانيين. إنه أكثر إصالةً من ذلك.
يمكننا أن ننعت هذه الأجنَبَة، دون حرج، بالأصالة. أجنَبَة شخصيات «نساء بلا أثر» تمنحها هذا الانفصال عن الواقع والتردّي في هذا الانفصال، وكأنّ هذه الأجنَبَة لم تكن عبثاً؛ لقد كانت شرطاً وربما رمزاً أو مجازاً لهذا الاغتراب عن الواقع اللبناني، وليست هكذا إلّا لتعطي أصالةً وأساساً وحقيقةً ـ إذا جاز التعبير ـ لهذا الانفصال الذي يجد فوراً معادلاً نفسياً وفكرياً، بل ومعادلاً جسدياً. «طريق الإهمال والمهملات... وسط عراء سهل تيبّست أعشابه، طريق السخام والغبار واليباس». هذا المقطع في أواخر الرواية يؤشّر عليها كلّها. إنها لا تروي الواقع اللبناني بقدر ما هي رؤية مضادّة لهذا الواقع؛ نوع من كتابةٍ إنكارية، نوع من سلبٍ كامل له. من هنا فإن الرواية ـ على طول الـ300 صفحة التي تشغلها ـ تفعل هذا الانفصال في كلّ جملة وكلّ خاطرة. إنه اللاأثر الذي تصنعه عبارةً بعد عبارة، فالرواية هكذا هي هذا السلب المتّصل، إنها نوع من الكتابة بالإنكار، بالتنصّل، الكتابة بالمحو.
الرواية تؤسّس، على طولها، حياةً كاملة في مواجهة واقع يجري رفضه بالحسّ والجسد والفكر. تؤسّس هكذا حياةً مضادّة لا نعجب حين تصفها في نهايتها بأنها بلا أثر، لا نعجب؛ فهذا اللاأثر ليس فقط حياة الأشخاص الذين يشغلون الرواية، إنه في نهاية الأمر كلّ ما بقي لنا من هذا الواقع، كلّ ما عشناه فيه.

> نساء الرواية لسن أجنبيات فقط عن لبنان، بل عن بلدانهنّ

(شاعر وروائي من لبنان)

محمّد أبي سمرا (علي علّوش)

فعاليات

تنظّم «مكتبة فرنسا الوطنية» في باريس، يومَيْ الجمعة والسبت المقبلين، منتدى بعنوان **احتلال وحرب الجزائر: مقاومات المفكّرين**. على برنامج السبت محاضرة حول المفكّر المارتينيكي **فرانز فانون** (الصورة)، بعنوان «فانون: مفكّر وطبيب نفسي مع استقلال الجزائر»، تقدّمها الباحثة باسكال بيلران.

حتى نهاية آذار/ مارس المقبل، يستضيف فضاء «مطافئ: مقرّ الفنانين»، في الدوحة، معرضاً بعنوان **أشكال بلاغية** للفنان والمصمّم الأميركي، الذي رحل في تشرين الثاني/ نوفمبر الماضي، **فيرجيل أبلوه** (1980 ـ 2021/ الصورة). يلقي المعرض نظرةً شاملة على اشتغالات أبلوه التي تجمع بين الفنون البصرية، والأزياء، والتجهيز، والتصميم، إضافة إلى الموسيقى.

أحلام وردية عنوان معرض للفنان المصري **عبد الوهاب حوّام**، الذي افتُتح أوّل من أمس السبت في «غاليري مشربية» بالقاهرة، ويستمرّ حتى بداية شباط/ فبراير المقبل. يقدّم الفنّان (1988) عدداً من آخر لوحاته التي غالباً ما تحضر فيها شخصيات نسائية تحدّق في منظور الرسم وكأنها أمام عدسة كاميرا.

يقيم «المتحف الفلسطيني» في بيرزيت، عند السادسة من مساء السبت، 29 من الشهر الجاري، عبر منصّاته على مواقع التواصل قراءة لمسرحية **قناديل ملك الجليل**، من تأليف **عامر حليحل** استناداً إلى رواية بالعنوان نفسه لإبراهيم نصر الله. يغطّي العمل فترة من التاريخ الفلسطيني، بين منتصف القرنين 17 و18.